الإسلام، آخر الديانات وأوّلها مميّزاته الخاصّة والكونيّة

تأليف: سيّد حسين نصر[1]

ترجمة: محمّد اسماعيل

الكلمات المفتاحيّة: الدين، الإسلام، المسيحيّة، الديانات، الاحتياجات، الله، الإنسان، العلم، الإرادة، الوحي، الواقعيّة، التوحيد

الإسلام دين إلهيّ

الله طبعًا هو المطلق، والإنسان هو الجزئيّ، ويجب على الإنسان أن يلاحظ حقيقةً، وهي أنّ الله هو المطلق، والإنسان هو الجزئيّ، ليعلم أنّ "الله هو الله"، وأنّه المطلق، في حين أنّ الإنسان كائن جزئيّ، يقف أمام الله ممتلكًا حرّيّة قبول، أو رفض التكليف الإلهيّ. هذه العلاقة بين الله والإنسان، المطلق والجزئيّ محور كلّ الديانات، ولكن لكلّ دين أسلوبه في استنتاج مظهر خاصّ لهذه العلاقة، التي تحتوي باطنيًّا على هذه الحقيقة، مهما كانت حدود أشكاله الخارجيّة. ومن هنا، فإنّ من عاش دينًا بكلّ أبعاده، فقد عاش كلّ الأديان. ولا يوجد ما هو أتفه، وأخبث من خلق توافق بين ديانات متعدّدة بحجّة الكونيّة، فهذا في الواقع ليس سوى تحطيم للأشكال الموحاة، والتي وحدها تصنع ذلك الارتباط بين الجزئيّ والكلّيّ، بين الله والإنسان.

من دون إملاء السماء، ومن دون الوحي في معناه الكونيّ، لا يمكن وجود أيّ دين، كما لا يمكن للإنسان أن يلحق نفسه بالله، إذا لم يوفّر الله من خلال نعمه الوسيلة للإنسان لفعل ذلك.

فكلّ دين قويم هو اختيار السماء، طالما بقي سليمًا من خلال احتوائه على تعاليم وطريقة، تنقذان الإنسان من حالات بؤسه الأرضيّ، وتفتحان أمامه أبواب السماء.

[1] أستاذ كرسيّ في جامعة جورج واشنطن، معظم كتاباته تركّزت حول الإسلام والفلسفة.

الإسلام لا يتحدّث عن التجسّد، وتوسّط المطلَق، ولا عن الطبيعة المنحدرة، والخاطئة للإنسان، بل ينظر إلى الإنسان كما هو في طبيعته الجوهريّة، وإلى الله كما هو في حقيقته المطلقة. إنّ وجهة نظر الإسلام تعتبر الموجود الإلهيّ كما هو بذاته، وليس تجسّدًا، كما عبّر عنه الآخرون عبر التاريخ. فوجهة نظر الإسلام مبنيّة على مبدأ الوجود المطلق الكلّيّ، وليس على تنزّل هذا المطلَق. لذا فهو لا يتعامل مع الإنسان على أساس الخطيئة الأصليّة كما تدّعي المسيحيّة، لكن على أساس فطرته التي تُعتبر متجذّرةً داخل روحه. قد يُقال: إنّ الإسلام ليس الدين الوحيد الذي بُني انطلاقًا من العلاقة بين الله والإنسان، ولكن هناك أديان مختلفة تؤكّد على تجسّد جزئيّ للألوهيّة، أو توسّطات مختلفة للكلّيّ. في الطبيعة اللاموحّدة للبوذيّة، التجسّد مبنيّ على "الخلاء"، وأنّ بوذا نفسه هو توسّط الخلاء. وفي المسيحيّة، تمّ التركيز بشكل خاصّ على شخصيّة المسيح، ولذلك من الطبيعيّ أن يُسمّى الدين الذي أوجده المسيح بالمسيحيّة. ولكن في الإسلام المسألة مختلفة تمامًا، ولهذا السبب من الخطأ أن نسمّي الإسلام بالمحمّديّة، هذا المصطلح الذي استُعمل لفترة كبيرة، أصبح من الصعب استئصال استعماله نهائيًّا. الإسلام ليس دينًا مبنيًّا على شخصيّة مؤسّسه، ولكن على الله ذاته. النبيّ هو القناة التي من خلالها تلقّى الإنسان رسالةً تتناسب مع طبيعة الكلّيّ، وبالتالي الجزئيّ، رسالة تتضمّن تعاليم وطريقةً، لأن الله نفسه هو الحقيقة المركزيّة للدين، فإنّ النبيّ محمّدًا صلّى الله عليه وعلى آله والمسيح عليه السلام وإن اختلفت أدوارهما، كونهما رسولَي الله، يمتلكان قواسم مشتركةً متشابهةً. الإسلام يؤكّد دائمًا على كيفيّة توسّط الله لنفسه، ولكن على طبيعته بالمعنى الحقيقيّ للكلمة، وليس بالمعنى الفلسفيّ، حيث لا يوجد طبيعة لله فلسفيًّا. لذا فتسمية الدين الإسلاميّ بالدين الإلهيّ تكون متطابقةً أكثر مع التعاليم الإسلاميّة، بدلًا من تسميته بالمحمّديّة.

اللّه والإنسان في الإسلام

بالنسبة للإنسان، فالإسلام يشرّع له طِبقًا لطبيعته الحقيقيّة "كما هو"، مع كلّ الاحتمالات الكامنة، واللازمة في الإنسان، ولكن ماذا تعني كلمة الإنسان كما هو؟ أي كما يبدو في حالته الأساسيّة، فالإنسان كائن ضعيف غافل، خاضع لمحيطه، وأسير شهواته ونزعته الحيوانيّة. فهو لا يعرف حقيقة معنى أن يكون إنسانًا، ولا يعيش الإمكانيّات الكاملة للشروط الإنسانيّة، وكأنّه نتيجة جهله يعتبر أنّه لا يحتاج إلى دين، أو وحي ليرشده. الإسلام ومن دون أن يغضّ النظر عن عناصر الضعف، والمحدوديّة للإنسان، ودون أن يعتبره من طينة فاسدة، نظر إليه على أنّه خليفة الله

على الأرض، وباعتباره مظهرًا من مظاهر تجلّي الأسماء، والصفات الإلهيّة، فهناك شيء من الله في الإنسان كما استدلّ على ذلك في الآيات القرآنيّة: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ...﴾[2] ، ومن خلال الحديث النبويّ: "خلق الله الإنسان على صورته"[3]، أي مثل المرآة التي تعكس بطريقة الإدراك أسماء الله، وصفاته. لذلك هناك شيء من طبيعة الإله "ملكوته" في الإنسان، والإسلام يتعامل معه على أساس هذه الطبيعة.

هذا الاعتقاد بالجوهر الإلهيّ "الذات" يبقى متعاليًا، ومنزّهًا كلّيًا، ولم يعبّر أيّ دين عن هذا التنزيه كما فعل الإسلام. تذهب المصطلحات الإسلاميّة إلى اعتبار الإنسان صورةً إلهيّةً، وليس كما يذهب بعضهم إلى اعتباره تجلّيات لحفريّات معرفيّة. هذه التعاليم لا تجسّد الله في الإنسان. لكنّ الوحي الإسلاميّ يصوّر الإنسان على أنّه كائن يحمل صورة الله، ويعرّفه على أنّه يوجد شيء من الشكل الإلهيّ في الإنسان. هذا الشيء هو:

أوّلًا: أداة يميّز فيها بين الصواب والخطأ، بين الحقّ والباطل، وهو موجّه فطريًّا إلى التوحيد.

ثانيًا: امتلاك الإنسان حقّ الاختيار بين الصواب والخطأ.

ثالثًا: هو القدرة على النطق بالكلمة، ليعبّر عن العلاقة بين الألوهيّة والإنسانيّة.

إذًا، في الإسلام، الإنسان ليس إرادةً فاسدةً تمتلك الذكاء، ولكنّه يمتلك علمًا، يقوده بشكل طبيعيّ إلى إثبات الألوهيّة، ويمتلك أيضًا الإرادة والكلام: إنّ العلم والإرادة، والكلام هي صفات إلهيّة أساسيّة، فالله الذي إحدى صفاته العلم – من أسمائه العليم – يعني أنّ الله يمتلك الحرّيّة المطلقة. وأن يكون مطلقًا يعني أن لا يوجد شيئًا خارجًا عنه، يعيق حرّيّته. الله هو المطلق، وفقط المطلق، هو الحرّ مطلقًا، والكلمة تعود إليه. فهي تصدر عنه، تخصّه. ومن هنا، نستطيع القول: إنّ صفات العلم، والإرادة، والكلام هي صفات إلهيّة أعطاها الله للإنسان بشكل صادق ليقود الإنسان نفسه من خلالها إليه. الإسلام يأخذ هذه العناصر، أي العلم، والإرادة، والكلام – والتي نستطيع أن نقول: إنّ الإنسان استعارها من اللّه – فيجعلها المرتكَز، والأساس في الدين، ويرفعها إلى أسمى مراتب معانيها.

---

[2] سورة **الحجر**، الآية 29.

[3] العلّامة المجلسيّ، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة2 المصحّحة، 1403هـ، 1983م)، الجزء 3، الرواية 1، الباب 5، الصفحة 195.

معنى العلم

الإسلام يعتبر أنّ الطبيعة الحقيقيّة للعلم، إنّما تسعى في النهاية لإثبات أن لا إله إلا الله، وأنّه لا يوجد إلّا حقيقةً واحدةً مطلقةً هي الحقيقة الإلهيّة، وأنّ كلّ شيء سواه هو نسبيّ وجزئيّ. هذا النوع من الإدراك لا يمتلكه أيّ مخلوق سوى الإنسان. هذه المعرفة الوحيدة التي يستطيع الإنسان أن ينالها بيقين قاطع فقط.

معنى الإرادة

أمّا الإرادة فتعني أن نتملّك القدرة بحرّيّة بين أمرَين، بين الحقّ والباطل، بين الصواب والخطأ، بين الكلّيّ والجزئيّ. إذا لم يكن للإنسان حرّيّة المعتقد فلن يكون له معنًى حقيقيّ. الإرادة الحرّة ضروريّة للفكر الدينيّ للإنسان، وهذا ينطبق على الإسلام، وعلى أيّ دين آخر. وهنا، لا بدّ من إزالة سوء فهم خبيث حول الإسلام، أي الاعتقاد بأنّ الإسلام هو جبريّ بالمعنى الشعبيّ للكلمة، هذا الفهم الشائع للإسلام في العالم الغربيّ، والذي اقترن به، حتّى أنّه أصبح يسمّى بالجبريّة أكثر من أيّ شيء آخر. وهذا الأمر يعني أنّ إرادة الإنسان مسلوبة، وليس لها أيّ دور. لكنّ الحقيقة هي غير ذلك. لو كان الإسلام جبريًّا لما استطاع أن يجتاح نصف هذا العالم خلال سبعين عامًا. إنّه لمن المستحيل أن نسمّي أكثر الحضارات بطولةً، وفعامةً بالحياة – كما هي معروفة للعالم – بالجبريّة.

ما أكّد عليه الإسلام هو الإخلاص الكامل لله، والاعتماد على إرادته، والإيمان بأن الله فقط يمتلك الحرّيّة التامّة، لأنّه المطلَق. ولكنّ الإنسان بسبب طهارة طبيعته، واحتوائه على جزء إلهيّ، يعتبر نفسه مشاركًا لله بهذه الحرّيّة، بالمعنى القاطع. الله فقط هو الحرّ، لأنّه الحقيقة المطلقة. ولكن من وجهة نظر إنسانيّة، فعلى قدر إحساس الإنسان بوجوده، يستطيع أن يحسّ بهذه الحرّيّة. إن هذه المسألة هي بالطبع من أصعب المسائل التي يمكن حلّها من وجهة نظر إنسانيّة، بسبب وجود تفرّع ثنائيّ بين الإرادة الحرّة، والجبريّة، ممّا يتجاوز الفكر الاستطراديّ، ويمكن فهمه فقط من خلال الحدس العقليّ، الذي لا يمكنه سوى ملاحظة التعارض الصدفيّ.

ولهذه الفكرة أصل في النقاش، يعود إلى عصور سحيقة، وقد عايشته المسيحيّة، واليهوديّة. على كلّ حال، ما أكّد عليه الإسلام، هو أن الحرّيّة بمعناها الكلّيّ القاطع تعود لله وحده، ومع ذلك فنحن نشاركه في هذه الحرّيّة، لهذا نتحمّل المسؤوليّة في الاختيار، على أن لا تفرض علينا هذه المسؤوليّة، وإلّا فإنّ الاعتقاد الدينيّ سيفقد معناه الحقيقيّ.

ماهيّة الكلام

بالنسبة للكلام، فهو أكثر مظاهر التعبير المباشر توضيحًا، عمّا نحن عليه وعما في كينونتنا، لا نستطيع التعبير عن ذاتنا بأيّ طريقة مباشرة أفضل من المخاطبة. فالكلام بمعنى آخر، هو الشكل الخارجيّ لمظهرنا الداخليّ، لذلك جعَله الإسلام نقطةً مركزيّةً في مناهجه، التي تدور في معظمها حول الصلاة والدعاء. المذهب الأساسيّ في الإسلام، والذي يدعى ركن الدين هو الصلاة اليوميّة التي، في إيقاعها المتكرّر، تتكامل حياة الإنسان في الدائرة الروحيّة. في الصوفيّة، الصلاة هي طريق العلم، لكن على شكل "ذكر"[4]، أو صلاة القلب التي تصبح في آخر الأمر تكاملًا في طريقة العمل الأكثر إيقاعًا في الحياة، وتدعى نبض القلب، الذكر هو القدرة على تذكّر الله، من خلال تكرار اسمه بشكل دائم، وفي معنى أكثر ظاهريّة هو استعمال الكلام كصلاة.

العبقريّة الروحيّة

بالطبع لا يوجد دين لا حضور للصلاة فيه بشكل أو بآخر، كما أنّه لا يوجد دين لا يلعب فيه العلم، والإرادة دورًا مهمًّا. لكنّ الإسلام يتميّز بالعبقريّة الروحيّة الخاصّة به، الذي جعل هذه العناصر الثلاثة، والتي هي العلم، والإرادة والكلام أساسًا في الحياة الروحية، وذلك بالنفوذ إلى جوهر هذه العناصر، وكشف طبيعتها الجوهريّة.

الإسلام يطرح سؤالًا مطلقًا، حول ماهيّة العلم، ومعنى حقيقة أن تكون عالمًا؟ ليس العلم كما أصبح متعارفًا عليه في عصرنا الحديث، والذي يرادف الذكاء العقليّ، والفطنة الشيطانيّة، التي تتلاعب بالأفكار بشكل دائم دون النفوذ إليها وملاحظتها. فهذا، بنظر الإسلام، لا يعتبر علمًا حقيقيًّا، وهذا ما ينطبق على الإدراك التأمّليّ الذي يختلف عن البراعة الفكريّة، مثلما يختلف طيران، وتحليق النسر عن لعب القرد. إنّ ما نسمّيه اليوم علمًا، هو حتمًا نوع من الترف العقليّ الذي يتلاعب بالأفكار المقدّسة، من دون إمكانيّة فهمها، والغوص فيها. هكذا عقل هو مثل البحيرة

[4] الذكر: ترديد اسم الله من قبل الصوفيّ.

المتجمّدة التي لا يمكن لشيء أن يغوص فيها، ولكن يبقى يتزحلق من مكان إلى آخر دون المسّ بطبقاتها العميقة. إنّ الإسلام لا يعتبر هذه النشاطات الفكريّة علمًا، مثل هذه النشاطات في أفضل أشكالها تكون انعكاسات للإدراك الحقيقيّ.

بين الإسلام والمسيحيّة

إنّ كلمة "العقل" في العربيّة تعني كلًّا من العلم والتعقّل، والتعقّل يعني ما يربطنا بالله. في الحقيقة، إنّ أحد معاني العقل هو الربط. القرآن يصف الذين ضلّوا عن الدين ﴿الَّذينَ لاَ يَعْقلونَ﴾[5]، الذين لا يستطيعون استعمال إدراكهم بشكل صحيح. إنّه لمن الواضح أنّ فقدان الإيمان مذكور في اللغة القرآنيّة على أنّه حركة إدراك خاطئة، وليس انحلالًا للإرادة.

هنا تكمن واحدة من الاختلافات الأساسيّة بين وجهات النظر الإسلاميّة والمسيحيّة، والتي تشكّل صعوبة لدى الكثير من الغربيّين في فهم طبيعة وجهة نظر الإسلام. المسيحيّة في الأساس لغز يحجب الألوهيّة عن الإنسان، وكما قال القدّيس أوغسطين[6]: "إنّ جمال المسيحيّة يكمن في قبول الإله على أنّه لغز، وفي الانحناء أمام هذا اللغز من خلال الاعتقاد به كمجهول، لكن على العكس من ذلك فالإنسان هو المحتجب عن الله". في الإسلام، الكائن الإلهيّ ليس محجوبًا عنّا، لكن نحن المحتجبون عنه، وواجبنا إزالة هذا الحجاب من خلال محاولة معرفة الله. إنّ إدراكنا ليس مقدرةً شيطانيّةً، إنّما هو هبة من الله، وعنصرنا المطلق هو الله نفسه. الإسلام في جوهره طريق للمعرفة، وهو مبنيّ أساسًا على المعرفة المباشرة التي لا يمكن بأيّ حال من أن تتساوى مع المذهب العقلانيّ، والذي هو شكل ثانويّ، وغير مباشر للمعرفة. الإسلام يوصل إلى المعرفة الجوهريّة، التي تصنع التكامل في كيان الإنسان، والتي تجعلنا نعرف أنفسنا، وأن نكون ما نعرف، وبكلمات أخرى، يجعل هذه المعرفة كاملةً ويصنع الرؤية التوحيديّة للحقّ.

الحاجة إلى الوحي

قد يُسأل اليوم، لماذا يحتاج الإنسان إلى الوحي إذا كان مخلوقًا على صورة الله، ومزوّدًا بالعلم الذي يقوده إلى معرفة الله، وتأكيد التوحيد؟ هذه المشكلة تحتاج إلى الكثير من الشرح، خاصّةً، وأنّ المدافعين عن الدين الإسلاميّ في العصر

---

[5] سورة **الأنفال**، الآية 22.

[6] فيلسوف مسيحيّ من آباء الكنيسة اللاتينيّة، ولد في الجزائر عام 354 م، وتوفّي عام 430 م.

الحديث، والذين سعوا للردّ على التهم المسيحيّة ضدّ الإسلام، وبسبب عدم امتلاكهم فكرًا قويًّا يبيّن الدين الإسلاميّ بمبادئه الأصيلة. هؤلاء المدافعون أعلنوا أنّ الإسلام لا يحتاج إلى الألغاز، والعجائب، والخطيئة الأصليّة، ولا لأيّ شيء آخر ممّا يعتبره المسيحيّون من الأمور الخارقة للطبيعة لإثبات نفسه. فصوّروا المفهوم الإسلاميّ للإنسان على أنّه المذهب العقلانيّ الديكارتيّ الذي يترك الإنسان لنفسه. وبدلًا من أن يُسمّى ربوبيًّا أو لاأدريًّا، كما في الغرب، سُمّي مسلمًا. هذه النظريّة ليست صحيحةً بتاتًا، لأنّ الإسلام رغم انطلاقه من طبيعة الإنسان الفطريّة، وإدراكه، وليست إرادته التي اضمحلّت بعد سقوطه على الأرض، فإنّه يؤمن بأنّ الوحي هو حاجة ضروريّة، وبدون عون الله لا يستطيع الإنسان أن يكتشف طريق الخلاص، أي الصراط المستقيم.

الإنسان بحاجة إلى الوحي، لأنّه، وإن كان مخلوقًا على صورة الله، فهو في طبيعته مهمِل، ومتناسٍ، وغير كامل. لذلك يجب تذكيره دائمًا. آدم، الإنسان الأوّل، كان أيضًا أوّل الأنبياء، فالنبوّة إذًا، حاجة ضروريّة للكائنات البشريّة منذ الإنسان الأوّل. فكما احتاج آدم للنبوّة، كذلك كلّ إنسان من ذرّيّته، لأنّه لا يستطيع وحده أن يسمو روحيًّا. يجب دائمًا إيقاظه من حلم النسيان بواسطة من هو مستيقظ. الإنسان إذًا، بحاجة إلى رسالة من السماء، ويجب أن يتّبع وحيًا حتّى يلاحظ الإمكانيّات الكاملة لوجوده، وللعقبات التي تعطّل العمل الصحيح لإدراكه. الإدراك يقود إلى الله إذا استُخدم بشكل كامل وسليم، وهو بالتأكيد وحي، هذا المظهر الإيجابيّ للإبلاغ يضمن الكمال، ويسمح للعلم أن يعمل بشكل صحيح، وأن لا يكون معاقًا بسبب الانفعالات. كلّ إنسان بحاجة لأن يتّبع نبيًّا ووحيًا إلّا إذا كان هو نفسه نبيًّا.

إنّ السبب الأقوى في حاجتنا للوحي هو وجود العقبات أمام الإدراك، وهذه العقبات التي تعيقه من العمل بشكل صحيح، وبشكل مباشر. إنّ الإنسان وبالرغم من خلقه على صورة الله، فهو دائمًا في حالة نسيان لهذا الأمر، بمعنى آخر، الإنسان يمتلك في داخله إمكانيّة على أن يكون مثل الله، ولكنّه دائمًا في حالة غفلة عن هذه الإمكانيّة. لهذا السبب كانت الغفلة هي الخطيئة الكبرى في الإسلام – الغفلة عمّا نحن عليه في الحقيقة – والغفلة هي النوم، وخلق عالم من الأحلام حولنا، ممّا يجعلنا ننسى حقيقتنا، وما يجب علينا فعله في هذا العالم. والوحي يأتي ليوقظنا من هذه الأحلام، ويذكّرنا بحقيقة كوننا إنسانًا.

الإنسان ليس إنسانًا، بمعنى أنّه يملك يدين للاستعمال، أو لصنع الطائرات، وصنع الآلات الحاسبة التي تحلّ أصعب المسائل الرياضيّة. هذه الإمكانيّة وغيرها ليست سوى أمور عرَضيّة على طبيعة الإنسان، بينما الأشياء التي تجعل منه إنسانًا مختلفة تمامًا.

يوجد قصّة في نهاية رسالة الحيوان في **رسائل إخوان الصفاء**، حيث يجري حوار بين الإنسان، والحيوانات. حيث أعضاء مملكات الحيوان يشتكون أمام ملك الجنّ على قسوة الإنسان عليهم، وكيف يستعملهم كوحوش لنقل الأحمال، ويشرب حليبهم، ويأكل لحمهم، ويستغلّهم بطرق أخرى، ليشبع حاجاته، ورغباته دون أيّ اعتبار لحقوقهم في مملكة الحيوان. دُعي الإنسان ليردّ على التهم الموجّهة إليه. فحاول أن يثبت أفضليّته من خلال التلميح إلى قدرته على بناء المساكن، والمدن، وحساب الأرقام، وبناء قواعد اجتماعيّة معقّدة، وتطوير العلم، والفنّ وقدرات أخرى. وفي كلّ مرّة كان أحد أعضاء مملكة الحيوان يشير إلى مهارة متكافئة، يملكها أحد أنواع الحيوانات مثل النحل الذي يُعتبر بطبيعته مهندسًا، ويظهر ذلك من خلال صنع قفيره بأشكال هندسيّة. وهكذا في كلّ مرّة كان الإنسان ينسب إلى نفسه مهارةً ما، ويعتبرها الحقّ الذي يخوّله السيطرة على الطبيعة، وتدميرها – كما فعل بشكل وحشيّ في القرن الماضي – كان يردّ عليه الحيوان بنفس الحجّة. ولكن عندما أشار الإنسان إلى وجود قدّيسين في المجتمع الإنسانيّ يمثّلون الله على الأرض، وهم الواسطة لكلّ المحيط الأرضيّ، وهم سبب وجود الخلق، هنا رضخت الحيوانات أمام ادّعاءات الإنسان في حقّه بالسيطرة عليهم. إنّ موقع الإنسان الأساسيّ في الوجود يعود إلى كونه مكرّمًا من الله، ولديه إمكانيّة للوصول إلى مرحلة القداسة، وليس لأنّه ذكيّ أو عبقريّ. هذه القصّة تبرهن النظرة الإسلاميّة للإنسان بناءً على كامل الممارسات الإنسانيّة في دائرة وجوده الإنسانيّ، وليس من خلال النشاطات العديدة التي يعرّف نفسه من خلالها عادةً، فهو إنسان من خلال تذكّر طبيعته الإنسانيّة، والتي تعتبر تجلّيات إلهيّة. ولما كان الإنسان في عمليّة تناس دائمة لهذه الطبيعة كان بحاجة دائمة إلى الوحي.

تعتبر الديانة المسيحيّة أنّ الإنسان قد أخطأ. لهذا انحرفت طبيعته بسبب هذا الانحراف، فكان لا بدّ من معجزة لإنقاذه. لذلك من خلال المعمدانيّة، والقربان المقدّس يتمّ شفاء هذا الجرح في روحه، ومن خلال انتمائه لحياة، وفداء المسيح يتمّ خلاصه. في الإسلام، لا يوجد خطيئة أصليّة، ولا يوجد أيّ فعل حرّف أو دمّر الإنسانيّة، ولكنّ الإنسان ومن خلال عدم كونه كاملًا، ولأنّ الكمال هو لله، فإنّ الإنسان يميل دائمًا للنسيان، ويحتاج إلى الوحي ليذكّره

بطبيعته الحقيقيّة. من هنا، وبالرغم من أنّ نقطة البداية لمفهوم الإنسان في المسيحيّة، والإسلام مختلفة، فإنّ النتيجة النهائية في هذا المعنى هي نفسها: إنّ الديانتين تؤمنان بضرورة وجود الوحي من أجل خلاص الإنسان.

الحاجة إلى الدين

الإنسان بحاجة دائمة للدين، بغضّ النظر عن كونه محدثًا؛ فمن خلال الشريعة الموحاة من اللّه، والتي ترسم له أسلوبًا للحياةِ والتفكيرِ والعيش يصبح هذا الإنسان حقيقيًّا، ويكون قابلًا ليجد المعنى الحقيقي للحياة. الشريعة وحدها تعطي معنى للوجود البشري، وإنّ الكثير من مفكّري عصرِ الأنوارِ العقلانيّين الذين نظّروا ضدّ الدين، لم يلاحظوا حاجةَ الإنسان العميقة للدين، لهدف يحمل معنى مطلقًا، ولم يستطيعوا التنبّؤ أنّ من حُرِمَ من الدينِ الموحى إلهيًّا عوضًا من أن يصبح مكتفيًا فإنّه يبدأ بخلق بدع متشعّبة، ومذاهب روحيّة خطيرة كالتي عصفت في المجتمعاتِ خلال القرنَين الماضيَين.

إنّ السلطةَ المميّزةَ المعطاة للبشر في ممارستهم ضمن دائرة الوجود، التي تحتوي على فرص، وإمكانيّات التشبّهِ باللّه، واجتياز عالم الطبيعة، ونيل روح خالدة تحمل خلالها مسؤوليّة خطيرة. هذه الميزة في امتلاك الحرّيّة لقبول أو رفض الإيمانِ عبّر عنها بشكل جميل في الآية القرآنيّة الكريمة: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾[7]. إنّ عظمةَ الحالة الإنسانيّة تكمن في امتلاك الإنسان القدرةَ للوصول إلى مرتبة أعلى من الملائكة، وفي الوقت نفسه إنكار وجود اللّه. كونه أعطى القدرة على أن يكون على صورة اللّه من خلال قبول الأمانة، فالإنسان يستطيع أيضًا أن يلعب دورًا مصغّرًا للإله، أو أن يكفر باللّه. هنا تكمن عظمة وجدّيّة العنصر البشري الإنساني. كلّ كائن في هذا الكون هو ما يكون، وكلّ كائن له مقام في هذا الوجود، والإنسان وحده يستطيع أن يلغيَ نفسَه كإنسان، فهو يستطيع أن يعلوَ فوق كلّ درجات الوجود الكوني، أو يهبطَ إلى ما هو أدنى من مستوى الوحوش. إنّ حرّيّة اختيار الجنّة أو النار الموضوعة أمام الإنسان هي نفسها دلالة على أهمّيّة العنصر البشري؛ لقد أعطي فرصة وحيدة عند ولادته في الدائرة الإنسانيّة، وتصبح فرصته مأساة إذا أضاع الأمانةَ أو صرف حياته في ممارساتٍ تحرفه عن الهدف الجوهري للحياة، وهو إنقاذ نفسه الخالدة.

يرمز في الإسلام بحجر الكعبة الأسود لهذه الأمانة وهذا الحِمل الثقيل الذي وضعه اللّه فوق أكتافِ الإنسان، والذي إذا حمله بأمان يضمن سعادتَه الخالدةَ، وهو موجود في مكّةَ في بيت اللّه، وهو في الحقيقة شهاب سقط من السماء، كما ورد في التعاليم الإسلاميّة، ويرمز إلى الميثاق بين اللّه والإنسان. علّم اللّه الإنسان أسماء المخلوقات كلّها

[7] سورة **الأحزاب**، الآية 72.

كما أخبرنا في القرآن، وكما ورد في العهد القديم؛ أي إنّ اللّه أعطى الإنسان إمكانيّة التسلّط على كلّ شيء، لأنّ من يملك اسم الشيء يستطيع ممارسة سلطتهِ عليه. الإنسان يمتلك حقَّ تنفّس الهواء الموجود حوله، وحقَّ الأكل والشرب، وإشباع رغباته الجسديّة، والمشي فوق الأرض. لم يخلقِ الإنسان أيًّا من هذا بنفسه، فهو أعطي الحياة والحرّيّة في قبول أو إنكار الخالق نفسه. وهذا معجزة بحدّ ذاته، أن يكون جزء من الوجود قادرًا على إنكار الذات. فرغم حقيقة وجودنا، إنّ بعضنا ينكر حقيقة أصل الوجود، منبع كلّ الوجود. الإنسان فقط يستطيع أن يصبح وجوديًّا، والحيوان موجود أيضًا لكنّه غير وجودي.

الميثاق

إنّها معجزة بحدّ ذاتها أن يعطى الإنسان القدرة على إنكار أصلِ وجوده. هذا الوجودُ الذي أعطي للإنسان مقابل شيء يريده اللّه منه، والمتمثّل في الميثاق الذي رَمزَ إليه اللّه بالحجر الأسود، والذي يمثّل عقدًا بين اللّهِ والإنسان. فكرة الميثاق هي إحدى مظاهرِ الدين، وغالبًا ما يتمّ نسيانُها في عصرنا الحديث، ولكنّها جوهريّةٌ في الإسلام، وتمّ التأكيد عليها بقوّة في العهد القديم من خلال عقدِ اللّه والشعبِ المختار، شعبِ إسرائيل، بينما في الإسلام عقد بين اللّه والإنسان بغضّ النظر عن العِرق والانتماء.

إنّ قبولَ الإنسان لهذا الميثاق يفرض عليه في المقابل واجباتٍ عديدةً؛ فعليه أوّلًا أن يجعل إدراكه متطابقًا مع الحقيقة النابعة من المطلق، ثمّ يجعل إرادتَه متطابقة مع إرادة المطلق، وكلامه متطابقًا مع ما يريده اللّهُ منه. وباختصار، وفي مقابل البركاتِ كلّها، والهباتِ التي أعطاها اللّه للإنسانِ، يجب على الإنسان بدوره أن يتذكّرَ طبيعتَه الحقيقيّةَ، وأن يضع دائمًا أمام عينيه الهدفَ الحقيقي لوجوده على الأرضِ، يجب عليه أن يعرفَ من هو؟ وإلى أين هو ذاهب؟ وهذا يحصل فقط من خلال مطابقة إدراكه مع الحقّ، وإرادته مع القانونِ الإلهي. إنّ الشخصَ الذي لا يتمّمُ واجباتهِ الدينيّة يعتبر ساقطًا بنظر المسلمين. فهو كشخص استأجر منزلًا، ويرفض أن يدفع الإيجار. لقد عاهد الإنسان اللّه، ولكنّه وبكلّ بساطة يرفضُ أن يلتزم بالأمور المطلوبة منه، فإنّ أبسطَ جزء للإسلام مرتبطٌ بفكرة قبول الميثاق الإلهي الذي يوجب العيش طبقًا للإرادة الإلهيّة.

معنى الإسلام

إنّ كلمة سلام التي اشتقّ منها لفظ إسلام لها معنيان: أحدهما السلام، والآخر التسليم (الاستسلام). فكلّ من يستسلم للإرادة الإلهيّة يحصل على السلام، فالفكرة الأساس للإسلام هي الاستسلام لإرادةِ المطلقِ، من خلال استعمال الإدراك للتمييز بين المطلق والجزئي، وكلمةُ مسلم تعني القبولَ بحرّيّة وإخضاع الإرادةِ الإنسانيّة للإرادة الإلهيّة.

تشير كلمة الإسلام بمعنى خاصّ إلى الدين المبين في القرآن، ولكن بمعنى عامّ إلى الأديان كلّها. بعض علماء المسلمين يرى ثلاثة معانٍ مختلفةٍ لكلمة مسلم، فالإسلام هو مثلُ الجبل المؤلّف من طبقات، وكلّ شيء فيه منقسم إلى درجات مختلفة في المعنى، ومصطلحُ المسلم ضمنها، وهذه المعاني التي أشاروا إليها هي:

المعنى الأوّل: يشمل كلّ من يقبل الوحي الإلهي فهو مسلم بالمعنى الأعمّ، مسلمًا كان أم مسيحيًّا، يهوديًّا أو زردشتيًّا – لم يأخذ الإسلام في الحسبان الأديانَ الهنديّة إلّا بعد الاتّصال التاريخي الذي حصل معها–، وقد يشمل هذا التعريف الهندوسيّةَ أيضًا، فالدين الهندوسي لُقِّبَ من بعض حكماء المسلمين بدين آدم. بهذا المعنى الأوّل تقال كلمة مسلم لكلّ كائن بشري يستعمل إدراكَه وإرادَته الحرّة في قبول قانون الوحي الإلهي.

المعنى الثاني: كلمة مسلم تشمل كلّ المخلوقات التي تقبل القانونَ الإلهي، من حيث خضوعها للقوانين غير القابلةِ للتبديل، والتي يسمّيها العالم الغربي بقانون الطبيعة. في العصور الحديثة أدّى أبسطُ ترابط منطقي لعالم الطبيعة، وانتظامُه إلى انحراف عدّة أشخاص عن النظرة الدينيّة للطبيعة، والتي تعتبر أنّ الحضورَ الإلهي في الطبيعة يعبّر عنه فقط من خلال المعجزات. إنّ شروق الشمس كلّ صباح بشكل منتظم، وعدمَ تمكّن أحد من اكتشاف أيّ خلل في انتظام الطبيعة، كان الجدل الأساس في القرنَين الثامن عشر والتاسع عشر، وحتّى من بعض العلمانيّين المعاصرين حول نظرة الدين المسيحي للكون، والتي تتعارض مع القانون الطبيعي. لكن في المقابل، فهذا التنظيم للطبيعة يثبت المفهوم الإسلامي للإرادة الإلهيّة التي، باستثناء الإنسان، تخضع لها المخلوقات كلّها، ولا تستطيع إلّا الطاعة، فلا يمكن للحجر إلّا أن يسقطَ لأنّ قوّةَ الجاذبيّةَ هي مظهرٌ من مظاهر الإرادة الإلهيّة في العالم الطبيعي؛ من هذا المنطلق يكون الحجر مسلمًا بسبب طاعته المطلقة لهذه الإرادة. إنّها الإرادة الإلهيّة التي يعبّر عنها بقانون الطبيعة في الفكر الغربي، كلّ شيء في الكون هو مسلم في بعده الأعمق ما عدا الإنسان الذي بسبب حرّيّة الاختيارِ المعطاة له تحت عنوان الأمانة المطلوب حفظها، يستطيع أن يرفضَ الخضوعَ لإرادة اللّه. إنّ الشجرة تنمو ولا تمتلك خيارًا آخر إلّا النموّ، ولا يمكن للنار إلّا أن تحرقَ؛ شجرةُ الإجاصِ لا تثمر إلّا إجاصًا، ويجب على النمرِ أن يكون نمرًا، والنسر نسرًا. الإنسان وحده الذي يستطيع أن يكون شرسًا كالنمر، متعاليًا كالأسد، أو وضيعًا كالدودة. الإنسان وحده بين المخلوقات كلّها يستطيع أن لا يكون مسلمًا في المعنى الثاني لكلمة مسلم من حيث الخضوعُ التامُّ للإرادة الإلهيّة والتي يعبّر عنها بقوانين الطبيعة.

المعنى الثالث: وهو الأسمى لكلمة مسلم والتي تصف الوليَّ الذي هو كالطبيعة، من حيث إنّ كلَّ لحظة من حياته تكون في تطابق مع الإرادة الإلهيّة، ولكنّ مشاركتَه لهذه الإرادة واعية، وليست كالطبيعة تسليميّة. المخلوقات كلّها تعلم أنّها موجودة، والإنسان وحده يعلم ويدرك أنّه يمتلك معرفة واعية لوجوده.

من المنطق أن نعتبر المعنى الأوّل مطبّقًا على الإنسان الذي آمن بالوحي، والمعنى الثاني لكلمة مسلم اندراجًا في الطبيعة، والمعنى الثالث وصفًا للوليّ الذي يؤمن بالوحي، ويخضع للإرادة الإلهيّة بشكل كامل؛ بحيث لا يكون فاعلًا

وواعيًا فقط، ولكنّ الانعكاس الإدراكي للمعنى الثاني فهو مثل الطبيعة، يعيش كلّ لحظة من حياته طبقًا للمعيار الإلهي بشكل واعٍ وبمطلق إرادته؛ لذا فهو الحافظ للطبيعة، والانعكاس الروحي لها.

الإسلام والتوحيد

الإسلام مبدأ كوني يحتوي الإنسان والكونَ من حوله ويكمنُ في طبيعة الأشياء؛ وبشكل آخر، فهذا الدينُ الذي بدأ بالانتشار منذ أربعة عشر قرنًا، لا يزال ينطلق ممّا هو في أصل طبيعة الأشياء، مركّزًا بشكل خاصّ على الطبيعة الإلهيّة نفسِها؛ بهذا السبب فالإسلام تأسّسَ منذ البداية – وحتّى النهاية – على مبدأ التوحيد؛ أي إنّ اللّه واحد، وهو ألف باء الإسلام. وقد أُكِّدَ على هذا المبدأ بشكل قد يبدو لغير المسلم حشوًا في الكلام، أو تكرارًا مبالغًا فيه، إنّه أمر بديهي. أمّا بالنسبة للمسلم؛ فمبدأ التوحيد أعظم من مجرّدِ التأكيدِ على أنّه لا يوجد إله غير اللّه في السموات. لا يمكن لأيّ دين أن يحوّل ربع البشر، وينتشر من المغرب إلى إندونيسيا بسبب فكرة بسيطة كهذه. فهذه الفكرة وحدها لا يمكن أن تجذب الناس إلى الدين. التوحيد فضلًا عن كونه تأكيدًا غيبيًّا حول طبيعة المطلق، فهو طريقة في التكامل، ووسيلة لملاحظة وحدة الوجود. كلّ مبدأ في الإسلام يتمحور حول تعاليمِ التوحيد التي يسعى الإسلام لتبيينها قبل كلّ شيء في الكيان الإنساني في حياته الظاهرة والباطنة. كلّ مظهرٍ للوجود البشري يجب أن يرتبط عضويًّا بشهادة لا إله إلا اللّه، التي هي الطريق الأعظمُ للتعبيرِ عن التوحيد. هذا يعني أنّه على الإنسان أن لا يكونَ محدودًا في فكره أو فعله، فكلّ حركة يجب أن تُظْهِرَ معيارًا روحيًّا عمّا هو موجود في عقله وقلبه، وذلك حتّى في مشيه وأكله.

يعبّر التوحيد عن نفسِه على المستوى الاجتماعي بالتكاملِ الاجتماعي الإنساني، الذي استطاع الإسلامُ أن يحقّقَه وبشكل ملحوظ سياسيًّا. التوحيد يظهر من خلال سعي الإسلام إلى أن يكون جسمه السياسي متّحدًا على شكل أمّة إسلاميّة واحدة – هناك شعب مسلم واحد – مهما تباعدت أفرادُه وانتشرت. الأمّة الكاملة وحدها تؤلّف هذه الدائرة المسمّاة الإسلام، ولا يحقّ لأيّ شريحةٍ في المجتمع الإسلامي الادّعاءَ بأنّها أمّةٌ إسلاميّة مستقلّة، تمامًا كما أنّه لا يحقّ لأيّ جزء من الدائرة أن يدّعي أنّه الدائرة. إنّ المثاليّة السياسيّة للحكومة الإسلاميّة الواحدة مع كلّ التجارب التي خاضتها، مؤسَّسة على التعاليم الغيبيّة للتوحيد.

يظهر التوحيد في مضامين الفنّ والعلوم، لأنّه لا يمكن للإسلام أن يقف موقفًا حياديًّا من المعرفة. لقد سعى الإسلام دومًا لمواكبة مجالات المعرفة؛ لذا اعترضته مشاكل صعبةٌ جدًّا، خاصّة مع الاكتشافات الجديدة، ومع فرضيّات العلم الحديث، مشاكل لا يمكن حلّها من خلال تحويلِ الإسلام إلى دين علمي، كما حاولَ الكثير من المفكّرين المسلمين. أصبح على الإسلام مواجهةُ التحدّي نفسه الذي تواجهه المسيحيّة منذ القرن السابع عشر. وحتّى يكون الإسلام طريقًا جوهريًّا للمعرفة، كان عليه إمّا أن يرفضَ كلّ شكل من أشكال العلوم، وإمّا أن يواجهها

ويتكامل معها، فالتاريخ الإسلامي أثبت حضورَ الإسلام في كلّ من الفلسفة، والعلوم، والفنّ؛ حيث بدأ مفهوم التوحيد بارزًا فيها من دون نشوء أيّ تعارض بين ما هو مقدّس، وما هو مدنّس.

الإسلام كونه دين التوحيد، لم يميّز أبدًا بين ما هو روحي وما هو دنيوي، بين ما هو ديني وما هو ملحد في أيّ مجال. إنّ عدم وجود مصطلح موحّد في اللغتَين العربيّة والفارسيّة، أو أيّة لغة في المجتمعات الإسلاميّة لمعنى الدنيوي والعلماني، لأكبرُ دليل أنّ التوافقيّةَ في الأفكار لا وجود لها في الإسلام. فسلطة القيصرِ لم تنتقلْ إلى القيصر في الإسلام.

انطلاقًا من التوحيد، رسمَ الإسلام طريقًا كاملًا للحياة، لم يستثنِ منها شيئًا. فتشريعه جدّ واقعي، من خلال تجانسهِ مع وجهة نظره المبنيّة على الطبيعة الحقيقيّة للأشياء. فهو لا يتوجّه إلى القدّيس فقط، بل إلى الإنسان العادي بكلّ نقاط ضعفه وقوّته؛ ولهذا السبب فُهِمَ الإسلام بشكل خاطئ من قبل العديد من المسيحيّين الذين اعتبروه دنيويًّا أو دينًا يحكم بالسيف. وهذا الاتّهامُ الأخير يجب الوقوف عنده، والإجابة عليه لأهمّيّته. صحيح أنّ الإسلام يمتلك تشريعًا للحرب، في حين تأمر المسيحيّة الإنسان أن يدير خدّه الآخر، وأنّها ديانة سمحاء ومحترمة في تعاليمها، ولكن ما يتمّ تناسيه أنّها اعتبرت نفسها دينًا وُضع للقدّيسين كما يقول المسيح: "إنّ مملكتي ليست في هذا العالم"؛ أي إنّ المسيحيّةَ لا تتدخّل في المسائل السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وتتوجّه إلى كلّ أتباعها على أنّهم قدّيسون، وبالتالي فالمسيحيّة دين لا يصلحُ إلّا لمجتمع من القدّيسين. لكنّ الدين الذي يحاول أن يكتنفَ حياةَ الإنسان بكاملها عليه أن يأخذ بعين الاعتبار كاملَ الطبيعةِ الإنسانيّةِ مع نقاط الضعف كلّها والنقص التي فيها، وأن يشرّع لحياته السياسيّة والاقتصاديّة كما يشرّع لمظاهر وجوده الديني البحت. ومن هنا، فإنّ الديانة المسيحيّة، ومن خلال عنايتها فقط بمن يعتبر قدّيسًا، لم تفلح في إزالة المظاهر غير المقدّسة لأتباعها، ولا في دفع الحرب عن مملكتها.

في الواقع، إنّ الديانة المسيحيّة، ومنذ اللحظة الأولى لاعتمادها دينًا للمدينة وللإمبراطوريّة، قامت برفع السيف وخوض الحروب للمحافظة على هذا المنصب. كان عليها أن تختار بين البقاء دينًا للرهبان أو أن تصبح دينًا مدنيًّا، الأمر الذي يستدعي تحمّلَ مسؤوليّة الحكم وخوض الحروب. إنّ ملوكًا مسيحيّين كشارلمان[8] وسان لويس[9] حاربوا بقسوة، كما حارب الحكّام المسلمون. وتجدر الإشارة إلى أنّ المحاربين المسيحيّين لم يكونوا أكثر شهامة ولا نبلًا من المحاربين المسلمين في أرض المعركة. وقعت إسبانيا في أيدي المسيحيّين، في الوقت نفسه الذي وقعت فيه الأناضول في أيدي المسلمين. وفي إسبانيا تعرّض المسلمون إمّا للقتل، أو للتهجير المميت، إذ لا يوجد أيّ مسلم هناك اليوم، في حين ما زال كرسي الكنيسة الأرثوذكسي في تركيا حتّى يومنا هذا.

---

[8] ملك الفرنجة، (768- 814).

[9] زعيم ثوري متأثّر بأفكار جون جاك روسّو، عاون روسبيير في عهد الإرهاب (1793- 1794) وقد أعدم على المقصلة.

إنّ الانتقادات التي اعتبرت الإسلام دينًا حاكمًا بالسيف لا اعتبار لها، فالإسلام حدّ من الحرب من خلال سنّ قوانين لها، في حين أنّ المسيحيّةَ تركتها خارج اعتباراتها. من هنا، ليست مصادفة أنّ جميع الحروب المدمّرة في هذا القرن بدأت من الغرب، حيث الديانةُ المسيحيّةُ هي الديانة المسيطرة بشكل فعّال. لطالما اعتبر العلمانيّون أنّ الحروب التي قامت بين المسلمين والمسيحيّين هي حروب دينيّة، ولم يكونوا ليعرفوا أنّ العالمَ العلماني الحديث سوف يشعل حروبًا تؤدّي إلى قتل أشخاص أكثر ممّا قُتِل في الحروب الدينيّة. الحرب هي جزء من طبيعة الأشياء، والإسلام عوضًا من تركها جانبًا وكأنّها غيرُ موجودة، وضع لها حدودًا من خلال قبولها وسنّ الشرائع لها. نستطيع القول: إنّ الحروب الرهيبة التي وقعت في هذا القرن، لم يقم بها العالم الإسلامي بل العالم الغربي قاعدة الدين المسيحي. لا نستطيع إلقاء اللوم كلّه على الدين المسيحي، فكثير من الحروب قامت بها مجتمعات منشقّة بطريقة أو بأخرى عن هذا الدين. ولكنّ عدم وجود قانون إلهي في الدين المسيحي يحكم حياةَ الإنسان الخارجيّة، كما يحكم الجانب الروحي منها، سهّل علمنة الحياة السياسيّة والاجتماعيّة وسلخها عن الأسس المبيّنة؛ ممّا أدّى إلى نشوء الثورات الأساسيّة في العصر الحديث.

ليس هدفنا الديانة المسيحيّة، ولكن تبرئة الإسلام من هذه التهم الباطلة التي وضعت ضدّه من قبل العديد من الغربيّين، وخاصّة من نوع معيّن من الناس الذين يريدون الحفاظ على طريق فارغ ومتقارب للحياة، وعلى جميع الصعد، والذين يعتقدون أنّ دور الدين هو فقط التناغم مع أسلوبهم في الحياة، ويعتبرون أنّ كلّ دين يتدخّل في النزاعات والحروب هو دين باطل.

الإسلام دين الواقعيّة

في الحقيقة، إن الدين الذي يسعى لاكتناف كامل الحياة عليه أن يأخذ بالاعتبار كل وقائعها. فالحياة الطبيعية لها عدة وجوه، ونواح، كالطبيعة فيها بحيرات، أزهار، وحقول مسالمة، وفيها أيضًا بروق ورعود مرعبة وجبارة. إنّ وحي الرسالات الدينية هو بحدّ ذاته انفتاح السماء على الوعاء البشري، إما أن ينزل كالبرق، ويترك أثره بشكل سريع، أو ينساب كالماء فيرشح تدريجيًا. وفي الحالتين كلتيهما، ما كان موجودًا سابقًا يتهاوى، ويقوم مكانه خلق جديد. الإمبراطورية الرومانية تهاوت تمامًا كما تهاوت الإمبراطورية الفارسية. واحدة اجتاحتها الديانة المسيحية روحيًا، والأخرى اجتاحها الإسلام. الديانة المسيحية، ومن خلال تركيزها على الجانب الروحي للحياة الإنسانية، لم تأخذ بعين الاعتبار الاحتياجات الاجتماعية، والسياسية لهذه الحياة.

أمّا الإسلام، فانطلاقًا من مبدأ التوحيد، كان عليه أن يشملَ كلّ الحياة الإنسانية من دون أن يغفل أي جانب منها. فقط المثالية المزيفة هي التي تصور الناس جميعًا على أنهم قديسون، ومن ثم تجد مشكلة مع من هم بعيدون عن الحياة المقدّسة، فقط هذه المثالية تستطيع أن تنتقد الواقعيّة المتجذّرة في الإسلام، الذي يبني نفسه انطلاقًا من الطبيعة

الحقيقية لاحتياجات الإنسان الروحيّة، والدنيويّة معًا، محاولًا حصر هذه الاحتياجات في اتجاه روحيّ؛ من خلال احتواء كل شيء ضمن مشروعه الكامل المؤسس على التوحيد. هذه الميزة للإسلام متصلة مباشرة مع حقيقة أنه الدين الأول، والأخير في الحياة الحاضرة للبشرية. يعتبر الإسلام نفسه الدين الحنيف؛ لأنه مبني على مبدأ التوحيد، الذي كان دائمًا موجودًا، والذي يكمن في جوهر كل شيء. كل دين مبني بشكل مطلق على مبدأ التوحيد، ومن هنا ورد في الإسلام أن التوحيد واحد. هناك فقط مبدأ واحد للتوحيد؛ وهو ما أكّد عليه كل دين، وما جاء الإسلام إلا ليؤكّد على هذا الأمر الذي لطالما وجد، وبالتالي العودة للدين الأول الذي كان في البداية، وسوف يبقى دومًا الحكمة الخالدة، والدين الحنيف الذي سعى لتحقيق هذا الأمر من خلال تأكيده الصلب على مبدأ التوحيد، ومن خلال محاولته إعادة الإنسان إلى فطرته التي حجبت عنه بسبب غفلته. بناء على وجهة النظر الإسلامية، فاللّه لم يرسل حقائق مختلفة من خلال أنبيائه؛ ولكن تعابير وأشكال مختلفة للحقيقة الأصلية للتوحيد. فالإسلام إذًا، هو التأكيد مجددًا على هذه الحقيقة الأولى الثابتة في إطار العقيدة الإبراهيمية في مناخ الروحية السامية، من خلال العناصر الثلاثة الأساسية؛ التي هي الإدراك، الإرادة، والمخاطبة، والتي تجعل إدراك التوحيد ممكنًا.

هناك ثلاث شخصيّات متشابهة في الإسلام، آدم، إبراهيم، والنبي محمد عليهم السلام. الدين الأول المبني على التوحيد بدأ مع آدم نفسه. فقد كان موحّدًا منذ البداية. الجنس البشري لم ينتقل تدريجيًا من عبادة الأوثان إلى التوحيد، ولكن على العكس، فمن فترة إلى أخرى، انحرف الناس عن التوحيد من خلال انحطاط ديني إلى عبادة الأوثان. أساسًا كان الإنسان موحّدًا، ومن ثم انتقل تدريجيًا إلى عبادة الأوثان؛ ولذا كان يتم تذكيره كل فترة بمبدأ التوحيد الأساسي. يتألف التاريخ من عصور متتالية من الانحطاط، والتجديد. الانحطاط ينتج عن الآثار المنحرفة للمحيط الدنيوي، وعن الأرض التي تجذب كل شيء نحو الأسفل، وتؤدي إلى انحراف القوة الروحية أثناء ابتعادها تدريجيًا عن منبعها الأصلي. التجديد يأتي من السماء عبر الأنبياء الذين يجدّدون بالوحي المتواصل حياة الإنسان الدينية والروحية. المفهوم الإسلامي في التاريخ هو حلقة من سلسلة الأنبياء، كل حلقة يتبعها انحطاط تدريجي، يقود إلى حلقة جديدة.

كما كان آدم الإنسان الأول، والنبي الأول في تاريخ البشر الدنيوي، كذلك مثّل إبراهيم إعادة التأكيد لهذا الدور للشعب السامي. يمثّل إبراهيم وحدة هذا المفهوم، الذي انبثق منه الدين اليهودي، والمسيحي، والإسلامي أعضاء المجتمع الإبراهيمي. كونه أبا الموحدين، وأبا الساميين؛ فإن إبراهيم يمثل في الإسلام هذا الدين الحنيف، الذي جاء الإسلام ليثبته. الرسالة الكونية خصّصت فيما بعد لشعب مختار من خلال موسى، في أول دين مستقل متفرّع عن التعاليم الإبراهيمية. الوحي المعطى لموسى كان في الحقيقة الشكل التشريعي لهذه التعاليم، أو لمبدأ هذا الدين، بحيث إن اليهودية جاءت لتؤكد على أهمية اتباع القانون الإلهي، "الشريعة التلمودية"، كأساس للدين. الإرادة الإلهية ظهرت في اليهودية على شكل قانون محسوس، يبين النمط الذي يجب أن تكون عليه الحياة اليومية للفرد. المسيح والوحي

المسيحي يمثلان، من جهة أخرى، الجانب الباطني للتعاليم الإبراهيمية، البعد الداخلي للدين الحنيف، والذي يشكّل مسلكًا روحيًا، وليس تشريعًا. المسيح لم يأتِ بشريعة، ولكن بطريقة تنطلق من حب اللّه.

الإسلام الدين الجامع

الإسلام تميّز عن الأنبياء الآخرين الذين أتوا بشريعة جديدة، أو نسخوا الشريعة السابقة. فقد لاحظ الدور الخاص للمسيح، وذلك من خلال اعترافه بطبيعته الخاصة، كروح اللّه، وولادته الخارقة للطبيعة المتصلة بأمه العذراء مريم. ﴿**وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا**﴾[11]، ﴿**إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**﴾[12].

من هنا، اعتبر الإسلام دائمًا أن المسيح نبي، وليس تجسّدًا. ما لا يقبله الإسلام في المسيحية، هو أولًا: مبدأ العلاقة الإبنية، وثانيًا: مبدأ الثالوث كما يفهم عادة. فكلتا الفكرتين غريبتان عن المفهوم الإسلامي. فمن حيث إنهما مؤسستان على طبيعة المطلق نفسه، وليس على مظاهر انحداره. باستثناء هاتين الفكرتين. الإسلام يجلّ المسيح، الذي يلعب دورًا مميزًا، وخاصًا في بعض مراحل الصوفية. الإسلام يعتبر نفسه المظهر الثالث للتعاليم الإبراهيمية بعد اليهودية والمسيحية. الآن وكما يعلم المسيحيون جيدًا أن التثليث هو انعكاس للتوحيد؛ بحيث إن هذا المظهر الثالث للتعاليم الإبراهيمية يعتبر عودة للتوحيد الأصيل للدين الإبراهيمي. كما أن الدين اليهودي يمثّل الشريعة، أو الجانب الظاهري لهذه التعاليم، والدين المسيحي يمثل الطريقة، أو الجانب الباطني لها. كذلك الإسلام يجمع التعاليم في وحدتها الأصلية من خلال احتوائه كلًا من الشريعة والطريقة. ويمكن القول أيضًا: إن الدين اليهودي في جوهره مؤسَّس على الخوف من اللّه. أما المسيحية فعلى حبه، والإسلام على معرفته. علمًا أن هذا فقط من باب التأكيد بأن كل دين قويم يحتوي بالضرورة على هذه المبادئ الثلاثة الأساسية للعلاقة بين الإنسان واللّه. وإذا كان الإسلام هو الدين الحنيف؛ فهو أيضًا الدين الأخير؛ وفي الواقع بسبب هذه الخصوصية، أصبح الإسلام ليس فقط دينًا قائمًا بذاته، صالحًا لأن يقبل، ويتبع من خلال تأكيده على ما بشّر به كل الأنبياء عبر العصور. بل يثبت طابعه الكوني كدين، وهذا ما لم يفعله أي دين قويم قبل الإسلام. فالدين الإسلامي فرض خصوصيته التي ميزته، وأعطته بالتحديد شكل الدين. كما يعتني الإسلام بالباطن، كذلك يعتني أيضًا بالظاهر؛ مما يجعله دينًا مستقلًا يدفع الناس لاتباعه، وقبوله بكل أشكاله ومذاهبه المتعددة.

الإنسان الذي يعيش في دائرة الخصوصية عليه أن ينطلق منها للوصول إلى الكون. إن الجمال الذي يكمن في الدين الموحى يتمثّل بكون هذا الدين الذي يتمثل شكلًا في الخارج، ينفتح باطنيًا على المطلق اللامتناه. فهو سير،

---

[11] سورة **الأنبياء**، الآية 91.

[12] سورة **النساء**، الآية 171.

ومسلك من الجزء إلى الكل، ومن الفرد إلى الكون؛ شرط أن يكون لنا الإرادة لقبول هذا الشكل، واتباعه، وليس رفضه بحجة الكونية التي لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال التعمّق في الأشكال التي هي بدورها جزء من الوحي.

الإسلام أيضًا كان يجب أن يكون له شكله الخاصّ، والذي تكوّن من خاصّية أنه الدين الأخير، فمع النبي تمت سلسلة الأنبياء وختمت، فالنبي الذي هو خاتم الأنبياء، صرّح بأنه لن يأتي بعده نبي، وقد أثبت التاريخ هذا. بالطبع إن مفهوم النبوة هذا لا يعني أنّ الجنس البشريّ سوف يستمر إلى الأبد، وبدون أي رسالة من السماء.

فالإسلام لا يقول بالامتداد المستمر للمسيرة في التاريخ إلى الأبد. فهو يؤمن بأن تاريخ البشرية له بداية ونهاية. ولهذه النهاية علامات، وأحداث غيبية موصوفة في القرآن، والحديث. وحتى ظهور هذه العلامات لن يأتي نبي جديد، ولكن كما يؤمن المسيحيون، فالإسلام يقول أيضًا بالظهور الثاني للمسيح، وليس لنبي آخر. حتى يتحقّق هذا الحدث فإن الإسلام هو آخر دين، والنبي هو آخر الأنبياء. ولن ينزل وحي جديد من السماء. إنّ خصوصية كون الدين الإسلامي آخر الأديان في دورة الأديان، تعطيه القدرة، والقوة على تركيب تعاليم مميزة في الاستيعاب، والتكامل مع كل ما هو متوافق مع فكره من الحضارات الأخرى. هذه القدرة في التكامل نحو التحديد، والوحدانية لم تكن تعني أبدًا الانصهار، والانتظام في شكل موحد؛ لأنه نقيض المبدأ الجوهري للتوحيد. لم يكن الإسلام يومًا قوة في اختزال الأشياء في اتحاد مادي، وجوهري، ولكن قوة في التكامل وفّرت خصائص، وميزات محلية من خلال إدخالها في نظريته الكونية. فهو تكامل، ودمج ما كان متطابقًا بالمطلق مع شهادة لا إله إلا اللّه، التي هي المعيار النهائي للإسلام الملتزم. وكل ما هو غير متعارض مع مبادئ التوحيد الإلهي، ومع التسلسل التوحيدي للطبيعة في الشكل والمضمون، فهو أمر مهم للإسلام. وغالبًا ما يصبح مندمجًا في إحدى النظريات الفكرية والإدراكية الإسلامية.

لذلك فالإسلام لم يعتن بالتعاليم اليونانية الموصوفة، والمكتوبة من قِبَل هوميروس (Homer)[13]، وهزيود (Hesiod)[14]، ولكن أظهر اهتمامًا شديدًا بالتعاليم الفيثاغورية- الأفلاطونية -PYTHAGOREAN PLATONIC والمدارس الأرسطوطاليسية التي أكدت مبدأ الوحدة الإلهية. في حين أن الإسلام لم يقبل مبدأ الإثنينية الزرادشتية نرى أن مدرسة السهروردي الإشراقية اهتمّت، وتكاملت مع المفهوم الزرادشتي للملائكة من منطلق فلسفي إسلامي؛ لأنها متوافقة مع الرؤية الكونية الإسلامية، ويمكن أن تندمج معها. ولأن الإسلام آخر الديانات فقد أخذ بالاعتبار التعاليم السابقة، ولم يخجل من الاستعارة منها، وتحويلها إلى عناصر تنتمي إلى وجهة نظره الخاصة. هذا لا يعني بكل الأحوال أن الإسلام ليس دينًا أصيلًا، أو أنه لا يملك عبقريته الروحية الخاصة به، والتي تجلّت في كل المظاهر الإسلامية. اليوم أصبحت الأصالة تعني بكل بساطة أن تكون مختلفًا حتى لو كنت مخطئًا؛ بينما في الإسلام،

---

[13] هوميرس: شاعر ملحميّ ولد في آسيا الصغرى. وهو يونانيّ من أعماله الإلياذة والأوديسه.

[14] هزيود شاعر يونانيّ يعرف باب الشاعر التعليميّ.

وكما في كل الأديان القديمة، فالأصالة تعني التعبير عن حقائق كونية دائمة الاستمرارية؛ لأنها حية، وتحتوي على التعبير الروحي، مشيرة إلى أن التعابير لا تأتي من التعبير السطحي الخارجي؛ ولكن من أصل الحقيقة نفسها. فقد تقبّلت الديانة المسيحية نفسها الفن الروماني المنحل، الذي وجد قبلها، وحولته إلى فن مختلف من خلال نتاجها الخاص. ويظهر ذلك جليًا في تحويل SCLUPTURE OF SARCOPHAGI في القرن الرابع بعد الميلاد[15]. لقد أخذت المسيحية الفلسفة الإغريقية مع كل ما تحتويه من مذاهب عقلانيّة، وطبيعيّة، وحوّلتها إلى لغة للتعبير عن المعجزات المسيحية، كما ظهر ذلك في كتابات آباء الكنيسة الأوائل. وهذا ينطبق على كل التعاليم الروحية الحية. فالعنصر الحيّ يشبع احتياجاته العضويّة. والنشاط العضويّ لا يولد من العدم، ولكنّه تحوّلات، وتكاملات تأتي جوهريًّا من السماء.

لذلك قد يبدو مفاجئًا أن الكثير من الكتّاب المسيحيين المعاصرين قد أنكروا أصالة الدين الإسلامي، في حين أن كل الحجج المقدّمة ضد الإسلام، يمكن إثباتها بشكل أقوى إذا ما وجهت ضد المسيحية نفسها.

فإذا ما حاول أحد إنكار أصالة دين ما؛ باعتبار أن أفكار، وأشكال التعاليم السابقة لهذا الدين موجودة فيه، فالمسيحية لا تتبنّى فقط المعتقد اليهودي، ولكن أيضًا الفن، والفلسفة الرومانية، والإغريقية، حتى إنها أخذت القوانين، والحكومة من الحضارة الرومانيّة، فيما الإسلام على الأقل له قانونه المستقل، ومؤسساته الاجتماعية المستقلة. إن أي قضية تُقَدّم ضد أصالة الدين الإسلام، إنما تكون آتية ممن ينكرون الوحي. ومن المنطقي القول: إنه لا يمكن أن تصدر هكذا اتهامات من الأوساط والقيادات المسيحية.

بشكل ملخّص، الإسلام مؤسّس على العلاقة الكونية بين اللّه والإنسان، اللّه من حيث كونُه المطلق، والإنسان في طبيعته المتجذّرة، والتي هي على صورة اللّه، الإسلام يؤسّس، ويبني على العلم، والإرادة، والكلام؛ وبالتالي على التوازن والتيقن، لقد سعى في تحقيق التوازن في الحياة من خلال توجيه كل الاحتياجات، والرغبات الإنسانية الطبيعية. كل هذه الاحتياجات الطبيعية مثل التناسل، الطعام، والمسكن، المعطاة من اللّه، ضرورية في الحياة الإنسانية؛ ذلك من خلال القانون الإلهي الذي هو الشريعة، وبناء على الأسس الثابتة لهذا التوازن، فالإسلام مكّن الإنسان من بناء صرح، روحي مؤسّس على مبدإ وحتمية أنه لا ألوهية لغير المطلق؛ لذلك فإن أسلوبه تناقض مع المسيحية، الذي يلعب الحبُّ فيها دورًا مركزيًا، والتي تعتبر التضحية والفداء هما الفضيلة الأسمى؛ مما دفع المسيحيين لانتقاد فضائل الإسلام، واعتبروها توسطًا ومساهمة بسيطة في توازن اجتماعي، في حين أنّ الحب، التضحية والفداء المسيحي تظهر للمسلم على أنها نوع من الجزئية والفردية للعلاقة الكونية بين ما هو طبيعي في الإنسان، والموجود الإلهي. على كلٍّ

[15] علم النحت على النواقيس التي كانت تزين قبور أباطرة روما، والتي عندما انتقلت إلى العالم المسيحيّ أصبحت تمثّل القديسين.

حال، فإنّ كلًا من الفضائل الإسلاميّة التي تؤدّي إلى التوازن الذي يمهّد الأرض من أجل الفكر، والإصرار المسيحيّ على التضحية هما معنيان يعمل الإنسان من خلالهما للهروب بروحه من سجنه الجسدي المحدود، وملاحظة النهاية المتعالية التي خلق من أجلها. الإسلام هو الوحي الإلهيّ الذي زرع مثل البذرة في قلب الإنسان، هذا القلب يمثل الوعاء الذي يحتوي الرسالة الإلهيّة. وعلى الإنسان أن يفرغ هذا الوعاء من كلّ العناصر العفنة التي تملأه حتّى يصبح مستحقًا لتلقي الرحيق والثمر الإلهي. من خلال إفراغ هذا الوعاء أصبح الإنسان مؤهلًا لتلقي رسالات السماء، ومن خلال كونه أرضًا خصبة فإن النبتة الإلهية مزروعة فيه.

لقد زرعت نبتة الإسلام في قلب الإنسان، وانتشرت من خلال القرآن والنبيّ. ومن هذه النبتة نمت الشجرة الروحية، التي أثمرت واحدة من أعظم الحضارات في التاريخ. شجرة تفيء في ظلالها شريحة كبيرة من العرق الإنسانيّ، حيث يعيش ويموت بعد أن وجد معنىً للكمال في الحياة البشريّة.